# العلاقة بين الفلسفة والطب عند المسلمين(*)

(١) يقول سير وليام أوسلر (Sir William Osler) فى كتابه «تطور الطب الحديث» Evolution ofModern Medicine إنه قدر لأعمال ابن سينا أن تظل «انجيلا طبيا (فى أوربا)لمدة أطول من أى عمل آخر»(١). والواقع أن كتابه «القانون» ظل يدرس فى بعض جامعات أوروبا إل القرن السابع عشر الميلادى. وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أهمية ماأسهم به ابن سينا فى ميدان العلوم الطبية فى العالمين الإسلامى والغربى. وليس ابن سينا إلا واحدا من أشهر أطباء الإسلام الذن كانت لهم مشاركة علمية وعملية فى تقدم علم الطب عند المسلمن. وهذا التقدم يعود فى رأينا إلى عاملين رئيسين هما : الإسلام ذاته الذى يؤكد على أهمية الطب، ويفتح الباب أمام البحث فى الأمراض ،وطرق الوقاية منها، وعلاجها، والإستفادة من تراث الأمم السابقة فى الفلسفة والطب وسائر العلوم كسياسة للدولة الإسلامية،خصوصا فى العصر العباسى، وليست كعمل فردى، وقد أدت هذه السياسة إلى نقل التراث الفلسفى اليونانى بما فيه الطب،فأفاد منه المسلمون وطوروه وأضافوا إليه جديدا.. وسنحاول فيما يلى أن نتحدث عن هذين العاملين بشىء من التفصيل.

## أولا : موقف الإسلام من الطب :

أول ما نلاحظه أن الإسلام قد حث المسلمين عل التداوى، وهو مأمور به شرعا. ويستند علماء الإسلام فى ذلك إلى أحاديث نبويه مثل قوله (ﷺ) : «ياعباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء ». وكان النبى يأمر أصحابه بعرض أنفسهم على الحارث بن كلدة، وكان طبيب العرب والعجم. وروى كذلك أن عمر بن الخطاب قال :

أرسلوا إلى الطبيب ينظر جرحى فأرسلوا إليه(٢)، ومعنى التداوى استعمال الدواء(٣).

ونلاحظ بعد هذا أن النبى (ﷺ) كان يسمح للنساء بالتطبيب، وخدمة الجرح

---

(*) أعمال المؤتمر العالمى الأول للطب الإسلامى، الطبعة الثانية، الكويت، يناير ١٩٨١.

(1) Nuting (A.): The Arabs, Mentor Book, New york, 1965, p.127

(٢) الأزرقى : تسهيل المنافع، القاهرة ١٣٤٩هـ، ص ٧.

(٣) الذهبى : الطب النبوى، بهامش تسهيل المنافع، القاهرة ١٣٤٩هـ، ص ١٠٠

(التمريض)(٤)، وقد جعل (ﷺ) سعد بن معاذ فى خيمة لأمرأة يقال لها رفيدة فى مسجده كانت تداوى الجرحى، وكذلك كانت أخت لها تسمى كعبة بنت سعيد الأسلمية(٥) تعالج الجرحى.

وقد دار بحث دقيق بين علماء الإسلام حول الطب من حيث موافقته أو معارضته لقضاء الله، وقد ذهب أطباء الإسلام إلى القول بأنه لا يعارض قضاء الله، كما أكدوا على أن الإسلام نفسه يدعو إلى الإيمان بالأسباب والمسببات، ومن ينكر الأسباب فهو كافر، فيقول الأزرقى : «وقد ثبت أن الله عز وجل وضع فى أشياء خواص، فمن أنكرها فهو كافر، ومن قال : لا فائدة فى الطب فقد رد على الواضع والشارع، فلا يلتفت إلى قوله، وإنما يراد بالطب التسبب إلى دفع ضرر وإجلاب نفع»(٦). وهو يرد كذلك على من قال إن التداوى خروج عن الرضا بقضاء الله(٧) قائلا إن من الرضا بقضاء الله التوصل إلى محبوباته بمباشرة ماجعله الله سببا، فليس للعطشان أن لا يريد الماء زاعما الرضا بالعطش الذى قضى الله به، وقد أمرنا الله بإزالة العطش بالماء فى قوله : وليأخذوا حذرهم»(٨).

ويؤكد الذهبى أيضا عدم منافاة الطب والعلاج للتوكل على الله، ويرد على القائلين بأن العلاج رخصة من الشرع، وتركه من باب التوكل، قائلا «التوكل إعتماد القلب على الله، وذلك لا ينافى الأسباب ولا التسبب، فإن المعالج الحاذق يعمل ما ينبغى ثم يتوكل على الله فى نجاحه، وكذلك الفلاحَ يحرث ويبذر ثم يتوكل فى نمائه ونزوله الغيث، قال تعالى : «خذوا حذركم(٩)» وقال عليه السلام : «إعقلها وتوكل»(١٠).

ويذهب بعض أطباء الإسلام إلى القول بأن الطب من الفطرة، أى تحكم بضرورته فطرة الإنسان، لأن المرء على حد قولهم : «مجبول على صيانه نفسه»(١١).

(٤) صحيح البخارى، جـ ٢، ص ٩٤؛ وانظر : نيل الأوطار للشوكانى، جـ ٧، ص ٢٠٠

(٥) محمد كرد على : الإدارة الإسلامية، القاهرة ١٩٣٤، ص ٢١ - ٢٢

(٦) تسهيل المنافع، ص ٧

(٧) نفس المرجع، ص ٨

(٨) النساء : ١٠٢

(٩) النساء : ٧١

(١٠) الطب النبوى، ١٠٣ - ١٠٤

(١١) نفس المرجع، ص ١٠١

وقد ذهب المسلمون بعد هذا إلى القول صراحة بأن النصوص الدينية كانت وراء إقبالهم على تعلم الطب والنبوغ فيه، وتأمل المعنى فيما يقوله الذهبي : «وقد تقدم قوله عليه السلام : «إن الله لم ينزل داء إلا وله دواء»، قلنا : إن ذلك يقتض تحريك الهمم وحث العزائم على تعلم الطب»(١٢).

ويشير صاعد الأندلسي إلى عناية العرب منذ صدر الإسلام بالطب إلى جانب علوم اللغة والشريعة، فيقول : «لم يعنوا (أى العرب) بشيء من العلوم إلا ما اتصل بلغتهم وأحكام شريعتهم، مع إستثناء علوم الطب، فإنها كانت معروفة لأفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرا إليها»(١٣).

ومما ينسب إلى الإمام الشافعي قوله : «لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب»(١٤).

خلاصة القول فى موقف الإسلام من الطب أ نه «من السنن القائمة لأنهﷺ فعله وأمر به»(١٥) وأجمعت كافة الأمة الإسلامية على ثبوت اصله فى الشرع، وشهود الكتاب والسنة بصحته(١٦) وهذا من أقوى الأسباب لإزدهاره وعناية المسلمين به.

**ثانيا : الإستفادة من تجارب وعلوم الأمم السابقة :**

لم تكن استفادة المسلمين من تراث الأمم السابقة فى الفلسفة والعلوم، ومنها الطب، عملا فرديا، وإنما كانت بتوجيه من الاسلام ذاته، وسياسة للدولة الإسلامية، خصوصا فى العصر العباسى، على نحو ماذكرنا من قبل.

ولا يجوز أن نفهم العلم فى الإسلام على أنه يعنى فقط بأحكام الدين وآدابه، وأنه لا شأن للإسلام بالعلوم الكونية أوالمادية، فإن مثل هذا الفهم خاطىء، ذلك أن الإسلام جاء شاملا لكافة ضروب النشاط الإنسانى، ومنها البحث الكونى، وقد أمر الإنسان بتعمير

---

(١٢) نفس المرجع، ص ١٠٧

(١٣) طبقات الأمم، النجف ١٩٦٧، ص ٦٣

(١٤) الطب النبوى، ص ١٠٧

(١٥) نفس المرجع، ص ١٠٢

(١٦) تسهيل المنافع، ص ٢

هذا الكـون المسخـر له، وذلك يعنـى فى نفس الوقـت أن الكون المشـاهد خاضع لإدراكـه وبحثه، وأن ظواهره ليست بالشيء المبهم الغـامض الذ لا يفسر، وأن بمقدوره الإستفادة من الكون وإستغلال خيـراته على أوسع نطاق لتأمن حياته ورفاهيتهـا، يقول تعالى : «وسخر لكم مافى السماوات وما فى الأرض جميعا منه»(١٧).

ويقول تعالى : «وسخر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون»(١٨).

وتوجيـه القرآن فى هذا الصـدد هو فى نفس الوقت تأكـيد على روح المنهـج العلمى الصحيح الـذى يدفع الإنسان إلى محاولة إسـتكشاف ما هومجهـول من هذا الكون وظواهره على أساس من الثقة بقدرة الإنسان وبالعلم فى مواجهة الطبيعة.

وكما يوجه القرآن النظر إلى البحث فـى الكون يوجهه أيضا إلى النظر فى الإنسان، كما فى قوله تعالى : «سنريهم آياتنا فى الافـاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيدا»(١٩)؛ «وفى أنفسكم زفلا تبصرون»(٢٠).

ومما له دلالة على أن العلم فى الإسلام غير محدود بحد معين قول الرسول (ص) فى رواية تأبير النخل المعروفة : «أنتم أعلم بشئون دنياكم». وهذا يفتح الباب واسعا أمام العقل ليستنبط من أنواع العلوم ما لاحصر له، ومنها علم الطب.

وتأمل المعنى فى قوله الإمام فخر الدين الرازى فى تفسير قـوله تعالى : «وشاورهم فى الأمر»(٢١) :

«وقد نطقت أحـاديث كثيرة بأن الرسول (ﷺ) كـان كثير المشاورة لأصـحابه، ومن ذلك حديث أبى هريرة : «ما رأيت أحداقط كان أكثر مـشورة لأصحابه من رسول (ﷺ)، وأصبـحت هذه المشاورة قاعـدة شرعيـة، ولذلك قال الحسن وسفيان بن عـيينة : إنما أمـر الرسول (ص) بلك ليقتدى غيره به فى المشاورة، ويصير سنة فى أمته.

ومع أن الرسول (ﷺ) كان أكمل الناس عقلا، إلا أن علوم الخـلق متناهية، فلا بعد

---

(١٧) الجاثية، ١٣

(١٨) النحل : ١٢

(١٩) فصلت : ٥٣

(٢٠) الذاريات : ٢١

(٢١) آل عمران : ١٥٩

أن يخطر ببال إنسان ما لا يخطر على باله من وجوه المصالح، لا سيما فيما يفعل من أمور الدنيا، وقد قال (ﷺ) : « أنتم أعلم بشئون دنياكم»، ولذلك أيضا قال (ﷺ) : «ماتشاور قوم قط إلاهدوا لأرشد أمرهم»، ومعنى هذا أن مصالح الناس كثرة ومنشعبة ولا يمكن تحديدها، وتختلف من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان»(٢٢).

لا حد إذن لما يمكن أن يستنبطه العقل البشرى من أنواع العلوم التى تتعلق بمصالح الناس المتغيرة من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان. وهذا هو الذى دفع فقهاء الإسلام إلى إعتبار العلوم والصناعات فروض كفاية، ومنها علم الطب، ودراستها عبادة لله تعالى، وأنه يتعين على ولى الأمر أن يدبرها فى المجتمع لأن فقدان أى منها يسبب حرجا للمسلمين.

من هذا المنطق شرع المسلمون منذ العصر الأموى فى الإستفادة من علوم الأمم السابقة على إختلافها، وسنقتصر حديثنا هنا على علم الطب.

لم يقف المسلمون عند حد ماورد فى النصوص الدينية - فيما عرف بالطب النبوى - لأنهم ادركوا أن العلوم الدنيوية فى تطورها تحتاج الى دوام البحث والنظر، والوقوف على ما عند الأمم الأخرى منها، كما أدركوا أن ما ورد فى الطب النبوى هو من قبيل التوجيهات العامة، وعليهم أن يبحثوا فى الأصول العلمية له، فيقول ابن خلدون فى المقدمة حول هذا مانصه : «والطب المنقول فى الشرعيات من هذا القبيل (أى من قبيل الطب المبنى على الخبرة لا على قانوم طبيعى)، وليس من الوحى فى شىء، وإنما هو أمر كان عاديا للعرب، ووقع فى ذكر أحوال النبى (ﷺ) من نوع أحواله التى هى عادة وجبلة، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل، فإنه ﷺ إنما بعث ليعلمنا الشرائع، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات، وقد وقع له فى شأن تلقيح النخل ماوقع، فقال : «أنتم أعلم بأمور دنياكم»، فلا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك مايدل عليه اللهم إلا إذا إستعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيمانى، فيكون له أثرعظيم فى النفع»(٢٣).

---

(٢٢) التفسير الكبير، جـ ٣، ص ٨٣، وانظر أيضا الإحكام للآمدى، جـ ٤، ص ٢٣، ونيل الأوطار للشوكانى، جـ ٧، ص ١٨٨ - ١٨٩

(٢٣) مقدمة ابن خلدون، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ٣٤٦

ولكننا لا نوفق ابن خلدون على أن الطب النبوى يستخدم فى التبرك فقط، صحيح أنه لا يتضمن أى نظرية طبية محدودة، ولكن قيمته راجعة إلى أنه حدد للمسلمين الطريق إلى إكتساب الصحة، خصوصا عن طريق الوقاية من الأمراض، وإكتساب العادات الغذائية الصحيحة. فضلا عن أنه حرك هممهم وحث غرائمهم على تعلم الطب كما ذكرنا من قبل، وهو الذى شكل المناخ العام للممارسة الطبية عند المسلمين.

مهما يكن من شىء، فإن المسلمين شعروا بضرورة الإستفادة من علوم وتجارب الأمم السابقة، وكان أول إتصال لهم بمدرسة الإسكندرية القديمة، وكان يمارس فيها الطب اليونانى مختلطا بالطب المصرى(٢٤)، وقد أسهمت هذه المدرسة فى نقل العلوم اليونانية إلى العرب، وكان لمؤلفات علمائها تأثيرها الملحوظ فى دراساتهم الأولى، وفى مقدمتها كتب طبية ترجمت مبكرا إلى السريانية والعربية.

ويذكر ابن النديم أن أول نقل فى الإسلام كان فى عهد الأمير الأموى خالد بن يزيد، المتوفى سنة ٨٥هـ الذى ذهب إلى الإسكندرية لتمكن من علم الكيمياء. وفى عهد عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١هـ أسلم طبيب إسكندرانى هو ابن أبجر، واعتمد عليه عمر بن عبد العزيز فى الطب، ويذكر كذلك أن أول مستشفى إنشىء فى الإسلام كان على عهد الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة ٨٨هـ(٢٥).

وكان العصر العباسى نقطة تحول رئيسية ى مجال الطب الإسلامى، وبدأ المسلمون سنة ١٤٨هـ، وذلك فى عصر المنصور العباسى، الإتصال بمدرسة طبية مشهورة هى مدرسة جنديسابور،(٢٦) وقد أسست فى عهد كسرى أنو شروان المتوفى سنة ٥٧٨م. ذلك أن المنصور العباسى إستدعى أحد أطبائها، وهو جورجيس بن بختيشوع، لمعالجته من حالة سوء هضم (Dyspepsia)، وقد نجح ابن بختيشوع فى معالجة الخليفة، وكان هذا سببا فى المكانة التى نالها هو وأسرته لدى الخليفة المنصور ومن جاء بعده من الخلفاء، وهكذا إنتقلت

---

(24) Nasr (seyyed Hossein): Science and civilization in Islam, Harvard University press, Cambridge, Massachusetts, 1968, p. 191.

(٢٥) توفيق الطويل (الدكتور) : لقطات علمية من تاريخ الطب العربى، مجلة عالم الفكر الكويتية، مجلده، عددا، ص ٦٢.

(26) Science and Civilization in zslam, p. 193.

مدرسة جنديسابور إلى بغداد.

واتجه المترجمون انذاك إلى ترجمة الكتب الطبية اليونانية إلى السريانية ومن هذه الأخيرة إلى العربية، وكان فى مقدمة المترجمين جورجيس بن بختيشوع وحفيده جبرائيل وأبو يحى البطريق، ويوحنا بن ماسويه. ثم بدأت الترجمة من اليونانية بعد إرسال بعوث من خلفاء بنى العباسى إلى مواطن المخطوطات الطبية، وأجزل خلفاء بنى العباس للمترجمين العطاء، وكان من أبرزهم حنين بن إسحق المتوفى سنة ٨٧٧م، وكون له مدرسة طبية مشهورة من أبرز رجالها ابنه إسحق، وابن اخته حبيش بن الأعشم، واصطفان بن باسيل. (٢٧)

وكان الطب اليونانى هو الأساس الذى بنى عليه أطباء الإسلام علم الطب، واعتمدوا فيه على كل من أبقراط(Hippocrates) وجالينوس (Galenus). وكان من مميزات الطب اليونانى - من ناحية المنهج - تؤخى البحث عن العلل الطبيعية للأمراض، وأدى هذا اليونانيين إلى دراسة أعضاء الجسم ووظائفها. ويرى بعض الباحثين فى الغرب أن الطب إرتفع على أيدى اليونان إلى مستوى لم يتجاوزه الطب فى أيامنا هذه إلا فى الجزئيات والمعلومات الخاصة(٢٨).

وبلغ إعجاب المسلمين بأبقراط أحيانا إلى أنهم قالوا إنه مؤيد بتأييد إلهى(٢٩)، خصوصا وأنه كما يقول سارتون (Sarton) إرتفع بمهنة الطب فى جانبها الأخلاقى حين حدد إلتزامات الطبيب وآدابه.

ولم ينظر المسلمون إلى اعتماد أطباء الإسلام على الطب اليونانى فى أول عهدهم بالإشتغال به، أو بعد ذلك، على أنه مخالف للدين، بل على العكس من ذلك رأوا أنه من الطبيعى أن يأخذ اللاحق عن السابق حتى لو كان السابق مخالفا لملة الإسلام، وقد بين لنا ابن رشد ذلك قائلا : «فبين أنه يجب علينا أن نستعين على مانحن بسبيله بما قاله من

---

(٢٧) نسبت إليه ترجمة لكتب ديسقوريدس فى الأقراباذين، وكتب أورياسيوس الذى أذاع علوم جالينوس.

(٢٨) ألدوميلى : العلم عند العرب، ترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة ١٩٦٢م، ص ٥١ - ٥٢

(٢٩) لقطات علمية من تاريخ الطب العربى، ص ٢٦٤

تقدمنا فى ذلك، وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك فى الملة، فإن الآلة (السكين) التى تصح بها التذكية (الذبح الشرعى) ليس يعتبر فى صحة التذكية بها كونها آلة لنا فى الملة أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة. واعنى بغير المشارك من نظر فى هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الاسلام (يشير هنا إلى فلاسفة اليونان). وإذا كان الأمر هكذا، وكان كل مايحتاج إليه من النظر فى امر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص (يشير هنا إلى المنطق)، فقد ينبغى أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم، فننظر فيما قالوه من ذلك، فإن كان كله صوابا قبلناه منهم، وإن كان فيه ماليس بصواب نبهنا عليه»(٣٠)

لقد كان ابن رشد فى ذلك يعبر عن روح الحضارة الإسلامية، فقد حث الإسلام المسلمين كما رأينا على إكتساب العلوم الدنيوية وتطويرها، والإستفادة فى هذا السبيل بتجارب الأمم السابقة وعلومها. وقد نبه ابن رشد إلى ضرورة النظرة المستقلة للتراث المنقول، وضرورة التمييز دائما بين ماهو صواب وما هو خطأ.

( ٢ ) وهذا هو مافعله أطباء الإسلام بعد نقل علوم الطب إليهم، فلم يعودا أتباعا لجالينوس وأبقراط، بل أخذا فى نقد التراث الطبى اليونانى، وأضافوا إليه جديدا، وكانت هذه مهمة أعلام الطب الذين ظهروا بعد حركة النقل. وكان أول مؤلف لأول عمل طبى إسلامى على بن ربن الطبرى مؤلف كتاب «فردوس الحكمة»،وقد ألفه سنة ٢٣٦هـ.

وكان لهذا الكتاب قيمته فى مجال علم الأمراض (Pathology) والصيدلة (Plarmacy والحمية (Diet)، وكان الطبرى استاذا لطبيب عظيم من أطباء الإسلام هو أبو بكر بن زكريا الرازى (Razes) (٢٥١ - ٣١٤هـ)، وبعد أعظم أطباء العصور الوسطى من حيث عنايته بالطب الإكلينيكى، وكان اثره هو وابن سينا ضخما سواء فى الشرق أو الغرب، ومن هنا اطلق عليه : جالينوس العرب، وهو مؤلف كتاب«الحاوى».

وقد رأس المستشفى الذى كان بمدينة الرى، ثم المستشفى الذى كان بغداد. وعرف عن الرازى مهارته الفائقة فى تقدر سير المرصد (Prognossis) وتحليل أعرضه وطريقة علاجه وشفائه(٣١). بل إنه كان خبيرا بالعلاج النفسى كذلك. وقد أسهم الرازى فى ميدان الطب

---

(٣٠) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال، القاهرة ١٣٢٨هـ، ص ٤ - ٥

(31) Science and Civilization in Islam, p. 207

بحوالى ستة وخمسين مصنفا كما يذكر البيرونى. وكان أول من ميز بين أمراض عديدة، وكذلك أول من كتب رسالة عن الجدرى وكيفية علاجه، وفرق بينه وبين الحصبة، وله كشوفات كثيرة لايتسع المجال لذكرها.

وكان أبرز طبيب بعد الرازى على بن عباس المجوسى المعروف عند اللاتينيين بإسم Haly Abbas والمتوفى سنة ٣٨٥هـ تقريبا، ولمؤلفاته شهرة كبيرة، ومن أبرزها «كامل الصناعة»، وهو متميز فى مؤلفه هذا بنزعة نقدية واضحة لأطباء اليونان والمسلمين الذين سبقوه، وهو ينظر إليه على أنه حجة فى الطب الإسلامى، ومن ذوى المهارة فى علاج أمراض مختلفة.

ظل على بن عباس المجوسى حجة الطب حتى جاء ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ، والذى يعتبر أكبر أطباء الإسلام منازع حتى أطلق عليه الغرب لقب «أمير الأطباء»، ومن غريب أنه لا يزال يسيطر علس دراسات الطب فى الشرق حتى يومنا هذا(٣٢).

وكان ابن سينا إلى جانب علمه بالطب حجة فى الفلسفة، فهو من أكبر فلاسفة الإسلام والغرب على السواء، حتى أن مؤرخى الفلسفة فى العصر الوسيط فى أوروبا كانوا يصنفون الفلاسفة الأوروبيين فيقال : فلاسفة سينويون وفلاسفة رشديون.(٣٣)

ولعل علم ابن سينا بالفلسفة هو الذى جعل منه طبيبا عظيما، فقد مكنته قدراته العقلية من أن ينظر فى مجال الطب النظرة الكلية الشاملة، فيضع بذلك النظريات الطبية فى صورة متكاملة. وقد خلف ابن سينا عددا من المؤلفات الطبية باللغة العربية وقليل منها باللغة الفارسية، ومنها رسائل تتناول أمراضا معينة، وأعظم مؤلفاته الطبية «القانون».

وكان ابن سينا كطبيب يتميز ببصيرة إكلينيكية فى الطب، كما برع فى وصف الأدوية والأمراض، كما فى مرض إلتهاب السحايا (meningitis) مثلا، كما أن علمه بالفلسفة وما تشتمل عليه من دراسات للنفس الإنسانية جعله يتفوق فى مجال الطب النفسى الجسمى (Psychosomatic Medicine)، ودرك العلاقة بين الوظائف النفسية والوظائف الجسمية.(٣٤)

---

(32) Ibid: p. 209.

(33) Gilson (E.): La philosoplie au moyen age, paris 1952, pp. 347 - 348.

(٣٤) انظر : القانون، طبعة بولاق ١٢٩٤هـ، مجلد ١، ص ٩٤ - ٩٥.

وقدر لإبن سينا أن يرتفع بالطب الإسلامى إلى الذروة، كما قدر لكتابه القانون أن يصبح المرجع الأساسى للدارسين من بعده، وحول ذلك يقول الدكتور سيد حسين نصر : «بلغ الطب الإسلامى مع الرازى وابن سينا الذروة، وأصبح مرتبطا بكتابات هذين الرجلين فى صورته المحددة التى أصبح على الأجيال التالية من طلاب الطب وممارسيه أن يأخذوا بها. وأصبح على طالب الطب أن يبدأ دراساته الرسمية بـ «حكم» أبقراط و«مسائل» حنين بن إسحق، و«مرشد» الرازى، ثم يمضى إلى «ذخيرة» ثابت بن قرة، وكتاب «المنصورى» للرازى، ثم يضطلع بعد ذلك بدراسة الرسائل الست عشر لجالينوس، و«الحاوى» (للرازى)، و «القانون» «لإبن سينا». وقد أصبح قانون ابن سينا بهذا المصدر الرئيسى لمهنة الطب، وأصبحت دراسته وفهمه الهدف الذى يوجه إليه كل مااشتملت عليه مناهج الدراسة الطبية. وعلى الرغم من ظهور كثير من الموسوعات الطبية الهامة فى قرون لاحقة باللغتين العربية والفارسية، فقد ظل «القانون» محتفظا بمكانته الرفيعة»(٣٥)

إستمرت حركة الطب فى إزدهار بعد ابن سينا والرازى فى كثير من أقطار العالم الاسلامى كمصر وسوريا، والمغرب والأندلس، وفارس وغيرها من الأقطار الشرقية.

ففى مصر كان بلاط الحاكم مسرح نشاط الطبيب الخازن طبيب العيون المعروف، وفى القرن الخامس الهجرى كان هناك على بن رضوان المعروف عند اللاتينيين بإسم Haly Rodoam، والذى كتب شروحا على أعمال جالينوس، وكانت مستشفيات مصر ومكتباتها تجذب الأطباء من أقطار أخرى. وبعد قرنين تقريبا وفد إلى مصر الطبيب الدمشقى المعروف ابن النفيس ليقيم بها، وقد توفى سنة٦٨٧هـ، وترجع أهمية ابن النفيس فى الطب إلى أنه كشف عن الدورة الدموية الصغرى(٣٦) (Pulmonary circulation)، وكان من المعتقد إلى عهد قريب أن الذى إكتشفها ميشيل سرفتوس (Michael Servetus). وكان ابن النفيس أيضا ممن نقدوا أعمال جالينوس فى التشريح، وكذلك أعمال لابن سينا فى كتابه شرح «تشريح القانون».

---

(35) Science and Civilization in Islam, pp. 211 - 212.

(36) Elgood (C.E.): A Medical History of persia and the Eastern Califate, Cambridge 1951, p.336.

ومن الاطباء الموسوعيين المتأخرين الذين ظهروا فى مصر **داود الأنطاكى** المتوفى سنة ١١٠١هـ = ١٥٩٩م صاحب «**التذكرة**»، وهى موسوعة تصور مدى ماوصل إليه الطب عند المسلمين حتى القرن السادس عشر الميلادى.

ونبغ كثير من الأطباء فى الأندلس والمغرب، ومن **أبراهيم أبو القاسم الزهراوى** المعروف عند اللاتينيين بإسم Albucasis، وكان أعظم شخصية فى طب الجراحة عند المسلمين، وهو مؤلف «**التصريف لمن عجز عن التأليف**»، توفى حوالى سنة ٤٠٣هـ؛ وابن زهر **أبومروان بن عبد الملك** المتوفى فى اشبليةحوالى سنة ٥٥٧هـ، وخلف عدة مصنفات طبية من أهمها «**التيسير فى المداواة والتدبير**»، وهومن أعظم أطباء الأندلس، ويعد الثانى بعد الرازى فى الطب الإكلينكى.

وكذلك كان الفيلسوف **ابن رشد** المتوفى سنة ٥٩٥هـ طبيبا بارزا، وألف موسوعة فى الطب تعرف بـ «**الكليات**»، وكذلك برز من فلاسفة اليهود فى الطب **ابن ميمون**.

( ٣ ) والآن بعد ان بينا كيف ازدهر الطب عند المسلمين، وما هى الأسباب التى أدت إلى ازدهاره، ننتقل إلى الحديث عن علاقة الطب بالفلسفة، والكليات الفلسفية التى قامت على أساسها النظرة الطبية الإسلامية :

لما نقلت الفلسفة اليونانية إلى المسلمين تأثر فلاسفة الإسلام وعلماؤه بقسمة **أرسطو** للفلسفة إلى : نظرية، وتشمل العلم الطبيعى والعلم الرياضى والعلم الإلهى؛ وعملية وتشمل الأخلاق وتدبير المنزل وتدبير الدولة(٣٧). ومنذ **أرسطو** اصبحت العلوم الطبيعية على إختلافها مندرجة تحت الفلسفة، وظلت كذلك إلى بدء إنفصال العلوم عن الفلسفة فى أوروبا تدريجيا منذ عصر النهضة حتى القرن الماضى.

ونظر فلاسفة الإسلام - متابعين فى ذلك **أرسطو** - إلى العلم الطبيعى على أنه العلم المتعلق بالمادة أو الأجسام، ومن بينها الأجسام الحية، لأن الجسم الحى موجود متحرك بالنمو والنقصان(٣٨).

---

(٣٧) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، القاهرة ١٩٤٦م، ص ١١٨.

(٣٨) نفس المرجع، ص ١٣٤.

ومن ثم أعتبر الطب الذى يبحث فى صحة الجسم الإنسانى ومرضه فرعا من فروع العلم الطبيعى، الذى هو بدوره فرع من فروع الفلسفة، ويعرف ابن خلدون علم الطب قائلا : «ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب، وهى صناعة تنظر فى بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية(٣٩)».

واعتمد اطباء الإسلام على نظرية أبقراط فى الأخلاط والأمزجة، وهى ترتبط بنظرية يونانية طبيعية هى نظرية العناصر الأربعة التى ترجع إلى الفيلسوف أنباذوقليس، الذى يرى أن العالم يتألف من النار والهواء والماء والتراب، وكان هو نفسه طبيبا ومؤسسا لمدرسة صقلية الطبية(٤٠). كما نجد عند متأخرى الفيثاغوريين النظرية الأنباذوقلية فى العناصر الأربعة مرتبطة بالأضرار وهى : الحار والبارد، والرطب واليابس.(٤١)

وقد لخص أحد أطباء الإسلام وهو الأزرقى هذه الكليات الفلسفية فقال عن إرتباط الأخلاط(٤٢)، وهى أربعة، بالعناصر الاخرى، فقال : «الزول خلط الصفراء، وهو حار يابس،أصله متولد من عنصر النار الطبيعى، ومسكنه فى الإنسان المرارة؛ والثانى خلط الدم، وهوحار رطب متولد من عنصر الهواء الطبيعى، ومسكنه فى الإنسان الكبد؛ والثالث خلط البلغم، وهو باردرطب متولدمن عنصر الماء، ومسكنه من الإنسان الرئة؛ والرابع خلط السوداء، وهو بارد يابس أصله متولد من عنصر الأرض، ومسكنه من الإنسان الطحال»(٤٣).

ويرتبط بالأخلاط أمزجة معينة، وكل مزاج منها له طبيعتان : فالصفراوى كما رأينا حار جاف، والدموى حار رطب، والبلغمى بارد رطب، والسوداوى بارد جاف. وترتبط الأخلاط أيضا بالحالات النفسية للإنسان، ويقول الأزرقى حول هذا : «فالسرور من الدم، والحرارة من الصفراء، والخوف للسوداء، والحزن للبلغم، فهذه الأخلاط الأربعة بها

---

(٣٩) المقدمة، ص ٣٤٥.

(40) Burnet (John): Greek philosophy, Thales to plats, Macmillan,

(41) New York, 1968, p. 57 Ibid, p. 71.

(٤٢) الأخلاط أشبه بالسوائل، وقد عرف ابن سينا بأنه جسم رطب سيال يستحيل إليه الغذاء أولا قبل أن يتمثله البدن، القانون، مجلد ١، ص ١٣.

(٤٣) تسهيل المنافع، ص ٣، وانظر أيضا تذكرة داود، القاهرة ١٩٢٦م، ص ٩ وما بعدها.

قوام البدن ومنها صلاحه، ومنها فساده»(٤٤).

وذهب أطباء الإسلام إلى أن المرض ينشأ عن فساد الأخلاط إما بالنقص أو الزيادة، أو بفساد طبيعتها، أو عدم نضوجها.

ولما كان كل شيء في عالم الكون والفساد يوجد من إختلاط العناصر الأربعة، فكذلك كل جسم إنساني له تكوينه المزاجي الذي يتولد عن الأخلاط الأربعة.

واعتقد أطباء الإسلام أن في مقدور الجسم ضغط التوازن بين الأخلاط، وهذا الذي يميز حالة الصحة. وليست وظيفة الطب في رأيهم أكثر من تقديم العون على تحقيق ذلك التوازن في حالة إختلاله ليعمل الجسم بصورة سليمة، وما الأغذية والأدوية إلا عوامل مساعدة لقدرة البدن الطبيعية على الحياة. ولكل مرض عندهم أدوية، وللأدوية والأغذية أيضا أمزجة فمنها الحار ومنها البارد، والهدف عند الطبيب هو أن يعين طبيعة المريض ذاتها(٤٥) ومن هنا تبع علم الصيدلة الإسلامي نظرية الأخلاط والأمزجة، وكذلك إرتباط نظام الحمية (تنظيم الغذاء) بتلك النظرية إرتباط وثيقا.

وينظر الطب في رأي ابن سينا إلى جسم الإنسان من عدة وجوه(٤٦)، فهو ينظر إلى الجسم من حيث العناصر التي يتألف منها، وينظر إليه من حيث التشريح، ومن حيث وظائف أعضائه، ومن حيث الصحة والمرض، ومن حيث الأطعمة والأشربة والحمية، ومن حيث الأدوية. وهو يرى أن ثمة عوامل تؤثر في عملية التوازن الخاصة بأخلاط الجسم، وقد يرجع إختلاف الأمزجة إلى إختلاف الأجناس البشرية، أو البيئة أو المناخ أو السن أو الذكورة أو الأنوثة، وعلى الطبيب أن يضع في إعتباره هذه الإختلافات التي تعد عوامل خارجية(٤٧).

وإذا أردنا أن نلخص - من ناحية المنهج العلم في البحث - ما تميز به أطباء الإسلام قلنا إنهم، في نظرتهم إلى الإنسان، كانوا يرون أنه مؤلف من بدن وروح، وليس من بدن

---

(٤٤) تسهيل المنافع، ص ٣ - ٤.

(٤٥) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٤٥.

(46) Shah: The Constitution of Medicine, in "Theories and philosophies of Medicine" Delhi: Institute of Medicine and Medical Research, 1962, p. 97.

(٤٧) عرض ابن سينا لهذا في الكتاب الأول من القانون.

مادى فقط، كما نظروا إليه على أنه مجرد أجـزاء لا علاقة بينها فى حالى المرض والصحة، كما كانوا داعين دائما إلى أن كل إنسان له شخصيته المتميزة أو المتفردة، كما نظروا إليه من حيث إرتباطه بالكـون أو الطبيعة، ومن حيث إرتباطه بالـبيئة التى تعيش فيـها، كما أنهم نبهوا إلى الفروق الفردية بين إنسان وإنسان، وإلى التغيير المستمر فى حالة الجسم، أو على حد تعبير **داود الأنطاكى** «عدم بقاء المركب على حالة واحدة»(٤٨)، وهذه كلها فى رأينا من القواعد المنهجيـة الجديرة بالإعتبار، فهى تدل على علمية الـنظرة، والمهم فى العلم هو صحة المنهج لا النتـائج، لأن النتائج الصـحيحـة لا بد آتية مع إستـخدام المنهج الصـحيح، ومن المعروف أن نتائج العلم تكون فى وقت ما إحتماليـة إلى أن يثبت خطؤها فيتجاوزها العلماء إلى غيرها وهكذا.

ومما يسـتوقف النظـر بعد هذا إعـلاء المسلمين مـن شأن علم الطب، حـتى أن داود الأنطاكى يذهب فى مقدمة كتابه «التذكرة» إلى حد القـول بأنه ليس هناك علـم من العلوم يسـتغنى عن علـم الطب أصلا، لأن إكـتساب الـعلوم لا يتم إلا بسـلامة البـدن والحواس والعقل(٤٩). وهذا الرأى إن دل علـى شىء فإنما يدل على أن أطباء الإسلام كـانوا واثقين بعلمهم ثقة لا حد لها، مدركين لأهميته فى حياة الإنسان.

( ٤ ) وكان أطبـاء الإسلام إلى جانب مـاتقدم حريـصين كل الحرص علـى تأصيل أخلاقيات معينة إستمدوها من الإسلام لعلم الطب وممارسته، فيقول **الأنطاكى** عن أخلاقيات الطبيب وقيمه : «فإذا لم يكن العارف به (أى بعلم الطب) أمـينا متصفا بالنواميس الإلهية، حاكما على عقله، قاهرا لشهوات نفسه، أنفذ أغراض هواه، وبلغ من عدوه مناه. ومتى كان عاقلا وله ذلك على أن الإنتصار لـلنفس من الشهوات البهيمية، والصبـر والتفويض للمبدع الأول (الله) من الأخلاق الحكيمة النبوية»(٥٠).

ومن ابرز ما يميز أطباء الإسلام خلق التواضع، فلم يدعوا لأنفسهم معرفة كل مرض وعلاجه وشفـائه، ولا أن بإمكانهم أن يدفعوا الموت عن الناس، أو يطـيلوا فى أعمارهم : «فالموت متحتم، لكن الطبيب يعالـج من علل العمر، قال حكيم (أى طبيب) : الموت قائم بالأجساد بالذات، وإنما الطب تحسين أيام المهلة (أى العمر) فالطلب يحفظ صحة الصحيح،

---

(٤٨) التذكرة، ص ٧

(٤٩) نفس المرجع، ص ٧

(٥٠) التذكرة، ص ٤، ص ٨

ويردها بقدر الإمكان على العليل»(٥١)، ويقول **الأزرقى** : «إعلم أن الطبيب الحكيم الماهر ليس يشترط عليه أن يبرىء العليل، فضلا عن أن يزيد فى العمر، ولكن عليه أن ينظر فى العلة»(٥٢).

بل أن بعض الأطباء من المسلمين ردوا على بعض أولئك الذين لا يؤمنون بالطب والعلاج ردودا لا تخلو من طرقة، فقال **الأزرقى** إن الطبيب نفسه معرض للمرض، إذ للمرض أسباب معينة قدلايعلم بها الطبيب نفسه، وقد يعلمها ويغفل عنها أو لا يحتاط لنفسه منها أحيانا، أما من يقول : كم قد مرضت ثم برئت من غير دواء! فهو جاهل، لإنه لو إستطب لكان ذلك أسرع إلى شفائه، لأن الطبيب يعين قوى الجسم على دفع المرض، وهذه القوى هى الدافعة.(٥٣)

ومن تقاليد الممارسة الطبية فى الإسلام والتى ترجع إلى شواهد من النصوص الدينية نفسها ما بينه لنا الذهبى وهو من كبار فقهاء الإسلام من جواز مداواة النساء للرجال إستنادا إلى مداواة أم عطية وأم سليم للمرضى فى غزوات النبى (ﷺ). كما نص الإمام أحمد بن حنبل على أن الطبيب يجوز له أن ينظر من المرأة الأجنبية إلى ماتدعو إليه الحاجة وإلى العودة وكذلك يجوز للمرأة أن تنظر إلى عورة الرجل عند الحاجة وهى حالة المرض إذا لم يوجد رجل أو محرم. بل أجاز الأطباء من المسلمين إستنادا إلى نصوص الدين جواز شرب المرأة دواء ليقطع الحيض إذا كان دواء يؤمن ضرره إذا لم يكن لها زوج، فإن كان لها زوج وقفت على إذنه.(٥٤)

وبمثل هذه الأخلاقيات وتقاليد الممارسة الطبية، وبالروح العلمية الموضوعية التى تميز بها الطب الإسلامى، وبالجهود العلمية والكشوفات الرائدة فى ميدانه، حظى علم الطب الإسلامى بإحترام كبير فى الغرب المسيحى منذ العصور الوسطى حتى مطالع العصر الحديث، وهذا ما سنشير إليه إجمالا فيما يلى :

( ٥ ) كان للفلسفة الإسلامية، بما إشتملت عليه من العلوم (ومنها علم الطب)، أثر

---

(٥١) الطب النبوى، ص ١٠١

(٥٢) تسهيل المنافع، ص ٦

(٥٣) تسهيل المنافع، ص ٧ - ٨

(٥٤) الطب النبوى، ص ١١٢ - ١١٣

كبير على الحضارة الأوروبية فى العصر الوسيط، وقد بين الأستاذ **إتيين جيلسون** أكبر أساتذة فلسفة العصر الإسلام الوسيط فى عصرنا أن أوروبا كانت فى القرن الثالث عشر الميلادى تتطلع إلى الفكر الأسلامى تريد أن تأخذ عنه وتفيد منه، وأنه كان لما نقل من الكتب العربية واليونانية إلى اللاتينية أثر قوى فى وجود نشاط فكرى هائل فى أوروبا وظهور الجامعات(٥٥).

وقد بدأت ترجمة الكتب الطبية من العربية إلى اللاتينية منذ القرن الحادى عشر الميلادى على يد رهبان مونتى كاسينى. وكانوا فى هذا قدوة لمترجمى القرنين التاليين(٥٦). وترجم **قسطنطين الإفريقى** المتوفى سنة ١٠٨٧م، وهو من أصل عربى، كتاب **«الفصول» لأبقراط مع شرح جالينوس**، وكتابين **لجالينوس** نفسه(٥٧)، كما ترجم عددا من المخطوطات الطبية العربية منها كتاب **«كامل الصناعة» لعلى بن عباس** فى دير بسالرنو بإيطاليا، فكانت جهوده نواة لنشأة مدرسة سالرنو الطبية.

وترجم **جيرارد الكريمونى** المتوف سنة ١١٨٧م كتاب **«القانون» لابن سينا**، وهو أكبر كتاب عرفته أوروربا فى العصر الوسيط، ونشرت له ثلاثون طبعة مبينة على الترجمة اللاتينية فى غرب أوروبا(٥٨)، وترجم **«المنصورى» للرازى**، وكان للمجلد التاسع منه تأثير عظيم فى أوروبا اللاتينية، فكان يدرس فى العصور الوسطى، وهو يحتوى على وصف دقيق لجميع أعضاء الجسم، وكانوا يسمونه فى أوروبا Nonus Almansori، واستمر يدرس بإنتظام فى جامعة توبخين إلى أواخر القرن الخامس عشر. وترجم **جيرارد الكريمونى** أيضا كتاب **«التصريف» لأبى القاسم الزهراوى**، **والزهراوى** هو الذى أرسى قواعد الجرحة العربية فى أوروبا العصور الوسطى.

ومن الكتب الطبية التى ترجمت إلى اللاتينية كتاب **«الحاوى» للرازى** سنة ١٤٨٦م، وكان أحد الكتب التسعة التى تكونت منها مدرسة الطب فى باريس بأكملها فى الفرن الرابع عشر، وكان مصدرا للعلوم الطبية وخاصة فى العلاج إلى ما بعد عصر النهضة بزمن طويل(٥٩). ونشر **كوينخ** (Koning) الجزء الأول منه وهو خاص بالتشريح مع ترجمة

(55) La philosophie au moyen age, p. 377 et suiv; p 391 et suiv.

(٥٦) يوسف كرم : الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط، القاهرة ١٩٤٦، ص ٨٠

(٥٧) نفس المرجع، ص ٩٣ - ٩٤

(٥٨) نفس المرجع، ص ٩٧

(٥٩) الطب العربى وتأثيره فى مدينة أوروبا، ص ٢١

فرنسية تحت عنوان : (Trois traites d' Anatomie Arabe)، وذلك فى ليـدن سنة ١٩٠٣، وترجم برونر (Brunner) القسم الخاص منه بالرمد، ونال بـه درجة الدكتوراه من برلين سنة ١٩٠٠م.

ومما ترجم أيضا إلى اللاتينية من مؤلـفات أطباء المسلمين رسالة الرازى عن الجدرى والحصبة، ترجمها قالا (Vall) ونشرها فى البنـدقية عام ١٤٩٨م، ونقلت إلى اليـونانية عام ١٥٤٨م، كما ترجمت إلى اللغات الفرنسية والألمانية والإنجليزية.

وترجم طبيب إيطالى يدعى ألباجو «شرح تشريح القانون» لابن النفيس إلى اللاتينية فى البندقية لأول مرة سنة ١٥٤٧م، ومن المعتقد أن يكون هارفى (Harvey) وقد إطلع عليه.

والمتتبع لتاريخ المدارس الطبية الأوروبية فى مونبلييه ونابولى وبولونيا وبادوا واكسفورد وكمبردج يدرك بـوضوح أنها قامت أساسا على دراسـة الكتب الطبية العربية المـترجمة إلى اللاتينـية، وظل الأمر كـذلك إلى حوالـى القرن السـادس عشر المـيلادى، بل ظل كـتاب «القانون» لابن سينا يدرس فى جامعتى مـونبلييه ولوفان إلى القرن السـابع عشر الميلادى - وهذا إن دل على شىء فإنمـا دل على مدى غزارة العطاء الذى أعطاه أطـباء الإسلام لأوروبا على مدى قرون، ومشاركتهم فى دفع عجلة التقدم للحضارة الإنسانية.